إنجيل متّى المنحول

د. دانيال عيوش

مقدّمة

في الأدب المسيحيّ القديم كنوزٌ لا تنضب من الخيرات الفكريّة. إنجيل متّى المنحول هو أحد هذه الكنوز. تقدّم هذه السطور المعلومات الأساسيّة عن هذا العمل التقويّ الذي انتشر كثيرًا في الغرب. يصل هذا النصّ إلينا باللغة العربيّة بفضل ترجمة إسكندر شديد، التي أستشهدُ بها في المقال مع بعض التعديلات بالحرف المائل، بعد مراجعة النصّ اللاتينيّ. يعالج القسم الأوّل من المقال المسائل الخاصّة بالمكان والزمان وهوّيّة كاتب الإنجيل؛ أمّا القسم الثاني، فيحلّل بعض النماذج بناءً على مقارنة النصوص القانونيّة والتقاليد المسيحيّة الرسميّة. في لائحة المراجع تجدون ذكرًا لأهم ما نُشر من الدراسات الحديثة حول هذا المخطوط.

التعريف عن الكتاب

يعود هذا العمل الأدبيّ اللاتينيّ إلى أواخر القرن السادس الميلاديّ. في بعض المخطوطات تتقدّمه رسالة من الأسقفين خروماسيوس وهيليودوروس إلى القدّيس إيرونيموس مع الجواب لهما. يقول القدّيس في جوابه إنّه قام بترجمة النصّ من العبريّة إلى اللاتينيّة وإنّ كاتب الإنجيل هو متّى البشير. أمّا النقاد المعاصرون فيؤكدون أنّ هاتين الرسالتين منسوبتان من أجل منح المصداقيّة للعمل المنحول. ونسبوا ترجمة الكتاب لإيرونيموس لأنّه كان مشهورًا بمعرفته للغة العبريّة وبترجمته للكتاب المقدّس إلى اللاتينيّة. علمًا أنّ إيرونيموس كان أكبر الخصوم ضدّ الأعمال المنحولة في القرن الرابع، وأنّه لم يشجع انتشارها أبدًا (de Santos, 75). إنّ الاستشهادات الأقدم التي وصلت إلينا عن هذا الإنجيل المنحول حددت في أواسط القرن التاسع الميلاديّ في فرنسا، الأمر الذي يؤكد على الزمن المتأخر لتأليفه.

يحتوي هذا الكتاب على موضوعين أساسيّين: مولد مريم العذراء وسيرة حياتها مع ميلاد يسوع المسيح وطفولته. لذلك يندرج إلى مجموعة منحولات الطفولة. فيما كان إنجيل يعقوب المنحول الأكثر انتشارًا في الشرق والذي أثّر على النصوص الليتورجيّة الشرقيّة وعلى رسم الأيقونات (رج المقالة عن إنجيل يعقوب في هذا العدد)، توزّعَ إنجيل متّى المنحول في الغرب ونقل معه الأساطير الشرقيّة وترك أثرًا على الأدب والفن المسيحيّين في أوروبا أثناء القرون الوسطى.

يكشف الكتاب اختلافات جوهريّة عن مصدره الأساسيّ، أي إنجيل يعقوب المنحول، خاصّة من ناحية الثقافة والخلفيّة الاجتماعيّة والدينيّة. هكذا، على سبيل المثال، يُلاحَظ أنّ المؤلّف لا يعرف أرض فلسطين ولا ثقافتها المشرقيّة. كلّ ما يذكره عن هذه البلاد لا يبعد عن المسلمات الأدبيّة المذكورة في الكتابات الغربيّة. علاوةً على ذلك، معرفته بالكتاب المقدّس بسيطة، فهو يميل إلى التفسير الشكليّ السطحيّ للأقوال ويكثر النبوات المحقَّقة في الأحداث المسرودة. هناك إهمال للمواضيع اللاهوتيّة العميقة التي تطورها أسفار الكتاب المقدّس حول البرّيّة كمكان للتجربة والرقم سبعة بمعنى الكمال الإلهيّ والرقم أربعين كزمن المحنة (Gijsel, 109s).

تحليل المضمون

يجمع هذا المصنّف مجموعة من التقاليد. مصادره الأساسيّة هي إنجيل يعقوب المنحول (ف ١-١٧) وإنجيل توما المنحول (ف ٢٥-٣٩). هناك مصادر مختلفة عن الطفولة أيضًا (ف ١٨-٢٤ و٤٠-٤٢). للفصول ١٨-٢٤، التي تروي هروب العائلة إلى مصر، علاقة متينة بما يسمّى "إنجيل الطفولة العربيّ"، ويرجح النقاد أن لهذَين العملَين مصدرًا مشتركًا قد ضاع (Gijsel, 107). بين القصص العديدة التي يغلب فيها أسلوب الخبر العجائبيّ، يذكر الإنجيل قصّة فريدة من نوعها وهي تروي سجود التنانين والأسود الساكنة في البرّيّة ليسوع ومؤازرتها العائلة أثناء عبورهم البرّيّة، حتّى أنّ الأسود لم تُسِئ للمواشي التي أتتْ معهم من اليهوديّة (ف ١٨-١٩: ٢). يفسِّر الكاتب هذه الأحداث الغريبة كتحقيق للنبوتين التاليتين:

"سَبِّحِي الرَّبَّ مِنَ الأَرْضِ، يَا أَيَّتُهَا التَّنَانِينُ وَكُلَّ اللُّجَجِ" (مز ١٤٨: ٧) .
"الذِّئْب وَالْحَمَلُ يَرْعَيَانِ مَعًا، وَالأَسَدُ يَأْكُلُ التِّبْنَ كَالْبَقَرِ" (أش ٦٥: ٢٥) .

لم يجد هذا المشهد أصداءًا في الأدب المسيحيّ الغربيّ، بسبب بعدِه الأسطوريّ البارز. ولكن، بين النصوص الأكثر تأثيرًا على التقليد اللاتينيّ نجد مشهد الطفل المولود الذي يسجد له الثور والحمار في المذود. هنا الترجمة العربيّة للمشهد:

> "في اليوم الثالث لولادة الربّ، خرجت الطوباويّة مريم من المغارة ودخلت الزريبة، ووضعت الطفل في المذود، فسجد له الثور والحمار. إذاك تمّ ما أنبأ به أشعيا النبي: 'الثور يعرف سيده، والحمار مذود ربِّه'. وكان هذان الحيوانان، وهو في وسطهما، يسجدان له بلا انقطاع. إذاك تم أيضًا ما قاله حبقوق النبي: 'سوف تُعرف في وسط حيوانين'. ولبث يوسف ومريم ثلاثة أيّام في ذلك الموضع مع الطفل" (ف ١٤).

في هذا النصّ ترد نبوءتان أساسياتان حول ميلاد المسيا المنتظر. الأولى من أشعيا ١: ٣ والثانية من حبقوق ٣: ٢. يلفت النظر أن الاستشهادين ينطلقان من النصّ اليونانيّ السبعينيّ وليس من العبريّ ولا من الفولغاتا اللاتينيّة. الأمر الذي يؤكد على أنّ النصّ الأصليّ لم يُكتب في العبريّة وأنّ مصدره يعود إلى التقليد اليونانيّ. في طريقة السرد نلاحظ ميلاً إلى التفسير الحرفيّ للأحداث، في حين أنّ سجود الحيوانين فُسّر في التقليد المسيحيّ بمعناه الرمزيّ: إمّا كرمز عصيان البشر مقابل خضوع الحيوانات، أو بمعنى سجود اليهود والأمم للمسيح، حيث الثور يمثل اليهود الذين حملوا نير الناموس، فيما الحمار يمثل الأمم بسبب جهلهم الإعلان الإلهيّ. على كلّ حال، التقليد الممثل في هذا النصّ أثّر بوضوح على الفنّ المسيحيّ القديم في الرسم والنحت في الشرق والغرب.

يلاحظ المرء في النصّ طابعًا رهبانيًّا في وصف حياة السيّدة العذراء في الهيكل وفي بيت يوسف (رج الفصلين ٦ و٨). هذا قد يدلّ على البيئة التي كُتب فيها الإنجيل. هنا مقطع يصف يوميات مريم في صباها في الهيكل:

> "كانت قد فرضت على نفسها نظامًا هو الدأب على التضرُّع منذ الصباح حتّى الساعة الثالثة وتكريس نفسها للعمل اليدويّ منذ الساعة الثالثة حتّى التاسعة. منذ الساعة التاسعة لم تكن تتوقف عن الصلاة...كانت منشغلة دومًا بالصلاة *ودراسة الشريعة* وكانت تنشر اهتمامها على رفيقاتها" (ف ٦).

يقدم الكاتب السيّدة كقدوة لحفظ الحياة الرهبانيّة. يمكن تفسير كلّ كلمة من هذا الفصل على أساس قانون القدّيس بنيديكتوس من نورسيا المدوّن في بدايات القرن السادس (رج عمل Amann). لافتٌ تنظيمُ الأوقات اليوميّة بحسب خدم الساعات الليتورجيّة والعمل اليدويّ، حيث يعكس هذا الفصل ممارسة الحياة الرهبانيّة في الغرب المسيحيّ آنذاك.

هناك نصّ آخر يجدر ذكره هنا وهو الذي يصف المكان الذي وُلد فيه المسيح:

> "وحين قال الملاك ذلك، أمر يوسف بإيقاف الدابّة التي كانت مريم عليها، لأن زمن الوضع حلّ، وقال لمريم أن تنزل عن دابّتها وتدخل مغارةً جوفيةً حيث لم يدخل النور أبدًا وحيث لم يكن النور أبدًا، لأن العتمة مكثت هناك في استمرار. وعند دخول مريم، سطعت المغارة كلّها ببهاء باهر كما لو أن الشمس كانت هناك، وكانت الساعة السادسة من النهار، وطالما بقيت مريم في تلك المغارة، لبثت، ليلاً نهارًا وبلا انقطاع، مستضيئةً بذلك النور الإلهيّ.

ووضعت مريم ابنًا وأحاط به الملائكة منذ ولادته وسجدوا له قائلين: "المجد لله
في الأعالي وعلى الأرض السلام لذوي الإرادة الصالحة" (ف ١٣: ٢)

يتفق هذا المقطع مع إنجيل يعقوب ١٨: ١ بخصوص ميلاد يسوع في مغارة. يشكل هذان المصدران المقطع الوارد في حوار يوستينوس مع تريفون (٧٨) الشهادات الأهم والأقوى لولادة يسوع في مغارة. بحسب الرواية لم تأتِ الولادة بالمخاض، بل بسبب الملاك الذي أعلن أنّ ساعة الولادة قد أتت. لا يذكر يعقوب ملاحظة النور الإلهيّ. أمّا بالنسبة إلى كاتب متّى المنحول، فالعجائب تتكثر وتعطي أهمّيّة لما يحدث. لا شك أنّ التعابير التقوية ازدادت من جيل إلى آخر مع مرور السنين.

خلاصة

إنجيل متّى المنحول مهم في البحث اللاهوتيّ، لا بسبب ما يقدمه عن حياة السيّدة والسيّد فحسب، بل أيضًا من أجل التعرف على الفكر المسيحيّ في أوروبا الغربيّة في القرون الوسطى. في هذا الإنجيل نرى أنّ الرعايا لا تزال تهتمّ بتفاصيل حياة الناصريّ الأرضيّة وتسأل عن البعد العجائبيّ للعمل الخلاصيّ. هناك عناصر مهمّة تدل على التشديد على حفظ الطقوس والفرائض الدينيّة، في حين أنّها تلفت النظر إلى انخفاض المستوى في معرفة الكتاب المقدّس ولاهوته، خاصّةً إذا قارنا الإنجيل بأعمال أخرى من القرون الأولى. لا شك أنّ هذا الكتاب مهم وأنّه كان الأكثر تأثيرًا على الذاكرة الجماعيّة المعاصرة لكيفية تصوير الطفل يسوع في المغارة.

المراجع

شديد، اسكندر وجوزف قزّي، **الأناجيل المنحولة** (الكنيسة في الشرق ٨)، غوسطا: دير سيدة النصر، ١٩٩٩.

AMANN E., *Le Protévangile de Jacques et ses remaniements latins*, Paris, 1910.

De SANTOS OTERO A., *Los Evangelios Apócrifos*, Madrid: BAC, 2005.

GIJSEL J., Évangile du Pseudo-Matthieu, en : Bovon, F. et P. Geoltrad. *Écrits apocryphes chrétiens*, Paris : Gallimard.

von TISCHENDORF K., *Evangelia apocrypha*. Leipzig, 1876[2], p. 51-112.